الفصل الخامس

"حاكم قلبا نبيلا يتحطم. ليلة سعيدة أيتها الأميرة ألطيفه وليهدهد لك منامك نشيد جيش من الملائكة."

- شكسبير. هملت -

ونقل سرير الفيكونت إلى الغرفة المستديرة التي رآه فيها الكسي يوم عيده الثالث عشر. وكان بوسع المريض أن يطل منها على البحر والمرفأ من جهة، ومن الجهة المقابلة، على الغابات والحقول.

وكان الهواء رطبا لطيفا ففتحوا النوافذ المطلة على البحر، وكان مركب شراعي يقوم بجارته السواري استعدادا للرحيل، وعلى ظهره، في ساري المقدمة، فتى في الخامسة عشرة من عمره. وكان مخيل لمن ينظر إليه، انه على وشك السقوط، بعد كل موجة. إلا انه كان ثابتا فوق ساقيه القويتين، وفي يده شبكة صيد، وغليونه يشتعل بين شفتيه.

ولفحت خد بلداسار هبة الريح نفسها التي كانت تنفخ الشراع فأطارت ورقة في الغرفة. وأدار بلداسار رأسه كي لا يرى هذه الصورة السعيدة لملذات أحبها بكليته ولم يعد يستطيع تذوقها. ثم تطلع إلى المرفأ. وكان مركب آخر، ذو ثلاث سواري يتهيأ للرحيل. وقال جان جالياس: " انه الشراع المسافر إلى الهند ".

ولم يكن بلداسار يميز بين الأشخاص الواقفين على جسر المركب، يلوحون بمناديلهم، ولكنه كان يحزر في عيونهم هذا – الظمأ للمجهول. أن أمام هؤلاء مجالا نسبها الحياة والمعرفة والأحاسيس!....

ورفعت المرساة فارتفع صوت، واهتزت كنة المركب على ادم البحر القاتم متجهة إلى الغرب، حيث يمزج النور، خلال الضباب المذهب، بين الغيوم والمراكب الصغيرة، ويتمتم في أذان المسافرين وغردا مبهمة مغرية.

وطلب بلداسار إن تغلق النوافذ التي تشرف على البحر وتفتح النوافذ المطلة على الحقول. ولطلع إلى السهل. وكان لا يزال بشمع أصوات الوداع تتصاعد من المركب الشراعي ويرى بعيني خياله، الفتى البحار ببرمي شباكه وغليونه في فمه.

وأرهف مجمعه لحظة فسمع صوتا فضيا عميقا لا تكاد تلتقطه أذن، تاروج من بعيد كخفقان القلب.. وكان صوت جرس قرية نائية اجتاز الأنهر، وطوي في هدأة الجو، فراسخ كثيرة من السهل ليطرق أذنه الأمينة. وكان صوتا أنيسا قديما، وانه ليستمع إلى دقات قلبه"

يخفق على رفع نغماته الرتيبة. وكان بلداسار في كل مراحل حياته.. عندما يسمع صوت الأجراس، يذكر بالرغم عنه، صوتها اللطيف تحمله إلى أذنه نسمات المساء، عندما كان يعود إلى القصر من طريق الحقول، وهو حدث صغير بعد.

في هذه الآونة استدعى الطبيب أهل بلداسار وقال لهم: هي النهاية!

وكان بلداسار هادئا وعيناه مغمضتين وقلبه يصغي إلى الأجراس- التي لم تكن تسمعها أذنه، وقد شلها الموت المغير. وتراءت له أمه وهي تقبله لدى عودته في المساء. ورآها وهي تدفئ قدميه بيدها في ليالي الشتاء، وتظل واقفة إلى جانبه، إن استعصى عليه المنام. وتذكر أيام طفولته عندما كان يقرأ (روبنصن كريزري)، وأمسيات الحديقة عندما كانت أخته تغنى إلى قربه. وتذكر كلمات أستاذ الموسيقي الذي تنبأ له بأنه سيصبح موسيقيا كبيرا، وتأثر أمه لهذه النبوءة، تحاول عبثا إخفاءه.

أما الآن فلم يعد لديه وقت يحقق فيه أماني أمه وشقيقته، وقد خدعها بقسوة. وتراءت له الزيزفونة الكبيرة التي عقد خطوبته في ظلها. وتذكر يوم فسخ الخطوبة و كيف استطاعت أمه وحدها أن تدخل العزاء إلى قلبه. وخيل إليه انه يعانق خادمته العجوز، وبمسك بيده قيثارته الأولى.

رأى كل هذا في أفق بعيد لامع، وحلو حزين كهذا الأفق الساجي تطل عليه النوافذ من جهة الحقول.

رأى كل هذا ولم تمض ثنيتان على كلمة الطبيب الذي سمع دقات قلبه وقال إنها النهاية.

وجثا الكسي وأمه، مع دوق دي بارم الذي وصل في تلك البرهة. ووقف الخدم خاشعين يبكون أمام الباب المفتوح.